فجيعة الهوية في رواية((حلم على الضفاف)) لـ: حسيبة موساوي – تشظي الآخر أم تغريب قسري–

الأستاذ: مصطفى بوجملين
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

الملخص :

تحاول هذه الورقة البحثية أن تقترب من تيمة أثيرية شكّلت ما يشبه الأزمة في البحث (الأدبي/النقدي) المعاصر، والتي تتمثل – تحديدا – في مسألة (الهوية) وتمظهراتها (المعقّدة/ المتأزّمة/ المتشظّية) داخل النص الروائي الجزائري الحداثي.

عليه، فإنّنا اجتبينا عملا روائيا نسائيا حمل عنوان ((**حلم على الضفاف**)) للمبدعة الجزائرية (**حسيبة موساوي**)؛ حيث تتعرض الرواية إلى قضية الهوية المتشظّية عند (الآخر) بطريقة سردية تحمل ما يشبه النضج الفكري في مكاشفة هذه المسألة (الفكرية/العقدية) بالتعويل على ميكانيزمات الحكي الذي تسمه براعة النسج اللغوي وبسحر الشعرية الجمالية ؛ فالنص يدور في فضاءات الهوية التي تتمظهر في (الذات/الأسرة/الوطن ...) عند (الآخر) في شكل حواري مقارناتي.

بناء على ذلك نضع الإشكالات الرئيسة التي تجيب على تيمة (الهوية) في رواية ((حلم على الضفاف))، والتي تتأتى كالآتي :

– ما تمظهرات (الهوية) عند (الآخر) في الميزان القيمي للأنا الساردة ؟

– ما تجلّيات (الوطن/المنفى) في حوارية الأنا مع الآخر؟

– ما ظلال (التشتت الأسري) الذي يلم بالشخصية (المغتربة/المستلبة)؟

عدّت الرواية جنسا أدبيا وافدا تبوّأ مكانته وسط هذا الصرح الإبداعي المتلوّن؛ إذ أضحت عند بعضهم ((ديوان العرب)) في زمننا الحداثي الراهن؛ ذلك أنّها لقيت تجاوبا مع الدائرة القرائية المتلقّية لها، لم فيها من تيمات تتباين طقوسها، وتختلف مرجعياتها وأهدافها.

لقد عرّفت الرواية عند بعضهم على أنّها « مرآة أدبية للمجتمع غالبا؛ إذ هي قراءة ظاهره، وكشف مستوره، وملامسة جراحه، ورصد حكاياته الظاهرة و الباطنة».[1]

إنّ رهان السلطة الأبوية على أحقية ريادتها للكتابة الإبداعية – السردية تحديدا – ، وإعلاء عقيرتها، قد لا يجد تجاوبا في ظلّ وجود أقلام أدبية نسائية، تمتلك أدوات هذا الجنس الأدبي ممّا يجعل منها ذوات تحرّر مكنوناتها لتصيّرها إلى لغة بديعة قشيبة داخل الجسد النصّي.

عليه، كان اختيارنا لصوت أنثوي جزائري، ممثل في الروائية المبدعة بـ: (حسيبة موساوي)[*] ؛ حيث تخيّرنا مخاضها الروائي الذي اختارت له عنوانا يدور في فلك الاغتراب الحلمي في فضاءات الحيّز الأجنبي ، والموسوم بـ: ((حلم على الضفاف)).

بذلك فإنّنا سعينا مجتهدين إلى مكاشفة هذا العمل السردي قصد انتشال مركزية التيمة التي تتبنى عليها روايتها، والمتمثّلة في إضاءة معالم الهوية المتشظّية عند (الآخر/ الأنا المستلب)، ونظرة (الأنا) له في ظلّ تجاذبية (المركز/الهامش).

بناء ذلك فإنّ نلفي كثيرا من المثقفين معالجين لهذه الظاهرة «كلّ في مجال تخصّصه هذه الظاهرة التي رغم ما قيل عنها فإنّها تظلّ ذات قيمة علمية وفكرية متميّزة، كونها تسهم في إذكاء شرارة النقاش الذي يدفع بالكثير من القضايا إلى الظهور، رغم ما قد يكون يحوم حولها من طابوهات أو محرّمات».[2]

لا مشاحة أن تكون رواية **(حلم على الضفاف)** للروائية **(حسيبة موساوي)** من بين الروايات النسائية التي عالجت مسألة الهوية، عبر التغلغل في قضاياها وملامستها من الداخل، فتطمح من خلالها إلى شدّ المتلقي إلى تلك الصور المنتزعة من الواقع بمختلف طقوسه (الاجتماعية/العقدية/ الفكرية)؛ حيث تتيح له « مواجهة أسئلة تثيرها الحياة، تدور حول "الأنا" وما يعترضها من أزمات في أثناء تشكيل هويتها، خصوصا حينما تصطدم بالآخر. فتتضح أمامه إشكالية "الأنا" والآخر، وتتبدى له التشوهات، التي تحاصر الآخر، وبذلك تستطيع الرواية أن تتسلل إلى أعماق الإنسان، لتناقش ما يكنّه في لاوعيه».[3]

عليه، فإننا سنحاول الاقتراب من حرمات نصّها الروائي، ومعاينة الأرضية البنائية التي يقوم عليها ، وهو يسبر أغوار قضية مفصلية شائكة متعلقة بهوية الآخر في منظور (الأنا)؛ حيث خلصنا إلى ثلاثة عناصر يقوم عليها المعمار السردي لروايتها ((حلم على الضفاف))، وبيان ذلك الآتي :

م1- وهج الأنا / هشاشة الآخر :

لا غرو في أن يكون مبدأ (الصراع/التلاحم) بين (الأنا/الآخر) حاملا لجملة من التقاطعات (الحضارية / الاستعمارية /الاستلابية)، ذلك أنّ « خلفية العلاقة بين الذات العربية والآخر المستعمر مؤسسة على ذهنية التصادم والصراع وفق معادلة طرفها الأول تحكمه قوة استعمارية تريد فرض هيمنتها وسطوتها بأساليب الردع والإذلال، أمّا طرفها الثاني فتحكمه قوة روحية مستمدّة من التشبّث بالقيم الإنسانية النبيلة في أبعادها الشرقية».[4] إنّ هذه القيم النبيلة المشار إليها لدليل صارخ على إشراقه الأنا المضمّخة بعبوق تراثها المجيد، وعقيدتها الرصينة السمحى، مما يجعل منها مصفاة لتلك المرايا المستلبة المشوّهة، حيث راهنت الروائية ((**حسيبة موساوي**)) على أن تجعل من (أحلام) الفتاة الحذقة التي تعي الميزان القيمي الذي يجلّي حقيقة الذوات من حولها، وبذلك سعت الروائية إلى تهيئة الأرضية للأنا الساردة (أحلام)، عبر تقريبها من الآخر دون واسطة (عارفة/عليمة)؛ لأنّ « منح الذات فرصة التعامل مع الواقع مباشرة بدون واسطة هو المظهر الأول والأساسي في معرفة الحياة عن قرب وبعمق، تلك الحياة المؤسسة على قاعدة إثبات الوجود وحماية (الأنا) من الاندثار والهلاك أو تعرضه للأخطار».[5]

بذلك تمكنت (أحلام) من تصيّد دلالات الهشاشة في شخصية الآخر– العم حسان تحديدا–؛ حيث تسلط الضياء على مرتكز مهم في (العقيدة/التقاليد) ، والمتمثّل في سلطة الرجل داخل أسرته، وانصياع الزوجة لأوامره ومطالبه، وهذا ما جاء في قولها : « **بينما عمّي راح يهتف مناديا زوجته ماري يبحث عنها في كلّ الغرف فلم يجدها غير ورقة تعلمه فيها أنّها ذهبت للتسوّق وعليه أن يخدم نفسه بنفسه** ».[6]

هنا يتكشف ذلك (الخنوع/الخضوع) عند العم حسان؛ إذ نزعت منه تلك الهيبة والرجولية الغائبة عنه، والتي تركت بدياره (المنسية/ المقصاة) من تفكيره الجديد داخل أجنحة الجحيم النورمندي المستّعر، ولم يقتصر الأمر عند الزوجة (ماري) وكفى بل تعدّى ذلك إلى بناته اللواتي رفعن لواء التمرد والعصيان حينما ألفوه ذاتا هزيلة تفتقد إلى سمات الذكورية الحقّة، حيث تطالعنا (أحلام) مستعرضة شخصية إبنته (فريدة) – مثلا –؛ فقالت عنها: « **كانت تبدو أنانية..مستهترة بالحياة..لا يهمها أحد..تدخّن كثيرا ..كانت تلبس ألبسة ضيّقة تكاد تلتصق بجسدها ..شفافة..شبه عارية(..)كثيرا ما راح عمّي يستلمها من الشرطة** ».[7]

تودّ (أحلام) عبر استعراضها لهذه الصورة المشوهة لابنة عمّها مآل كل مغترب لا يملك مقاليد السلطة بشتى أنواعها : (العقدية/الأخلاقية/التربوية...)؛ لأنّ هذه الفتاة التي يطبعها (الاستهتار/الانحلال الخلقي/الضياع) لم تخلق مع هذه الطباع والميزات التي صارت منهلا يغذّي شخصيتها، ونهجا يمضي بها إلى عوالم التيه والضياع، لكنّها لم تجد ذلك الأب الذي يحمل قيم الشهامة والرجولة، والهوية التي ينتمي إليها، فيصيّرها إلى فتاة ناظرة، يميزها الخلق النبيل، وتستقوي بالدين الإسلامي السمح الجليل، ولعلّ ما يزيد من بشاعة هذه الصورة الفوتوغرافية التي تنقلها (أحلام) عن ابنة عمّها (فريدة) هو ذلك (العار) الذي لحقّ بالعم حسان، وهو ما دلّت عليه عبارة ((**كثيرا ما راح عمّي يستلمها من الشرطة**)).

لم يك هذا الحال متعلقا بـ(فريدة) وكفى، بل الأمر سيان حينما تعرج بنا (أحلام) إلى أختها (نورة)، فلم تك أحسن حال منها؛ حيث اختارت حرية الارتباط بشخص يهودي يدعى (صاموئيل)، الذي كان أحرص من والدها على تثبيت روح العقيدة اليهودية عندها وتدريسها الحرف العبراني، ترميزا من الروائية إلى شناعة الاستلاب في ضوء تيه الآخر –حسان–؛ وهذا ما يجلّيه قولها : « **لحظتها تيقّنت من حقيقة البرق الذي اخترق صدر نورة .. لتنتقل من إنسانة ضائعة على الضفاف .. من إنسانة تائهة إلى إنسانة بنت لنفسيتها شخصية أخرجتها من عتمة الضياع لتجد نفسها مع صاموئيل الذي استطاع وبكل تفان وإتقان أن يجرّدها من روح العروبة ويزرع داخلها العبرية (...) استطاع أن ينتزع منها تلك الأحلام التي أراد يوما عمي حسان أن يحقّقها لفتياته هنا على الضفاف**».[8]

يكشف لنا هذا القول على حقيقة لـ(الآخر) الذي طالما كان طرفا معاديا للأنا العربية – تحديدا – وهو (الآخر الصهيوني)؛ حيث أعادت الساردة (أحلام) ذكره في الخاتمة النصّية للرواية، والمتمثّل في شخصية (صاموئيل) ، حيث تعرج الساردة إلى الواقع المأساوي الذي حلّ بابنة عمّها (نورة) التي اتّخذت هذا اليهودي كزوج لها، ثمّ وقع الطلاق بينهما، واستلبت فلذة كبدها (لوشيا) منه ليفر بها إلى كيان الانتماء عنده (تل أبيب)، إلا أنّ (أحلام) لا تبصر إلى حجم الوقيعة بقدر ما كانت تستشرف حالها حين تكبر في ديار (الكيان المغتصب)، فتغرس في ذاتها القيم الدنيئة : الحقد الضغينة العدوان الكره للذات العربية التي تملك نصيبا منها؛ وهذا ما يوضّحه القول الآتي : «**كلّ الذي ستذكره حتما أنّ والدها يهودي وأنّ عليها أن تحافظ على انتمائها حتّى تحقّق بذلك قطعة أرضها تضمّها وأباها في سلام**

بعد أن يغرس أبوها بذرة الحقد داخلها لتنمو شيئا فشيئا إلى أن تكبر وتتفجر في كل العرب مهما كانت مشاربهم ».[9]

إنّ ما تضمّنه هذا المقطع السردي من دلالات ورمزيات عميقة يجلّي بوضوح نضج (الأنا)، ومدى استيعابها لمجريات الواقع؛ لأنّ خطورة الهمجية الصهيونية على العالم العربي أضحت أقرب مما مضى سابقا؛ خاصة في ظل فكر (الانتماء) بعد (الشتات) الذي أوضحته (أحلام)، وكأنّها بذلك تخزّ الذهنية العربية الغافلة عن مخططات (الآخر المضاد)، الذي يسعى جاهدا إلى محق مقوّمات المجتمع (العربي– الإسلامي)، لأنّ شعارات السلام التي تلوكها ألسنتهم مدعاة للسخرية منهم، وهذا ما جعل (أحلام) صانعة لمفارقة التهكّم بهم، وهو ما دلّت عليه عبارة **((في سلام بعد أن يغرس أبوها بذرة الحقد))**؛ إذ لا يجتمع (الحقد) مع (السلام)، ولكنهم يجعلون منه مطيّة دنيئة للوصول إلى أهدافهم الاستدمارية المقيتة.

إنّ تناقضات الحلم والواقع، الطموح والفشل، التي عاشتها (نورة) وغيرها مع الآخر الصهيوني قد تمثّلت ((في الدعايات التي روّج لها السلام والتعايش السلمي مع الآخر الإسرائيلي، في حين أنّ الواقع لا يقدّم إلا مزيدا من القمع والتدمير والاستيلاء)).[10]

في سياق آخر لم تشفع له – في نظرنا – التسمية التي اختارها كذلك العم حسان لابنته الأخرى (نورة) بعد تأكيد واعتراف منه على أن رجولته كانت في هذا الموضع وكفى؛ أي رجعته المتثاقلة إلى هويته في لحظة زمنية سريعة؛ وهذا ما يبيّنه قوله على لسانه وهو يخاطب الفتاة (أحلام) : « **جمعت رجولتي الغائبة عني منذ مدة من الزمن لأختار اسما من هناك ..نورة ».**[11]

إنّ قراءتنا النقدية لهذا القول تحتّم علينا إضاءته عبر مفاتيحه الدالة، والتي تتلخص عندنا في المثلث الممزق، الذي تعبّر عنه الدوال المفرداتية الآتية : (رجولتي الغائبة / هناك / نورة) ، فأمّا عن الأولى فهي تلخّص ذلك الاعتراف الصريح بفقدان : (السلطة/القوة/ التحكّم/ السيطرة/الشجاعة..وغيرها)، وعن الثانية فإنهّا تلخّص ذلك الإقصاء والتعالي السلبي للوطن الأم؛ حيث استبدل مفردة(الوطن) بـ(هناك) وكأن الجزائر بل غريب عنه، لا يعلمه، لا ينتمي إليه، وبخصوص لفظة(نورة) التي أراد أنّ يجمّل بها هويته كشكل لا جوهر؛ إذ لو كان القصد إعادة بناء هويته من خلال هذا الاختيار المسمياتي لألفينا – وفق تصوّرنا –تكملة لقوله،كأن يقول– مثلا– : ((**نورة ..لأجعل منها امرأة أصيلة تناظر أم السعد))**، لكن اكتفاءه بالتسمية المفرغة من كل محمول يزيد من وصف حاله بأنّها

(ممزقة/مشتتة/محتضرة/معمية/منهوكة/مستلبة...وغيرها) . وهذا ما جعله في سياق نصّي آخر منبئا ابنة أخيه (أحلام) بضياعه في متاهات الجراح، ودهاليز الحلم المبهرج الكاذب، حيث خاطبها قائلا : « **إيه يا أحلام ...السنوات تمرّ .. تنطح بعضها بعضا ..وسفينتي الغارقة لا منقذ لها..ولا مرافئ تعود إليها ..تبلسم جراحي ما اقترفه حلم كاذب**».[12]

لا محالة أن تتشكّل في ذهنية (أحلام) الفكرة التدافعية مع هذا الآخر ، القريب نسبا، البعيد هوية ووطنا ، فما سمعته منه قد لا يجد تجاوبا داخل ميزانها القيمي المصقول بعناوين : الهوية/الانتماء/العقيدة/الموروث، ومما يدلّل على هذه الخاصية التدافعية هو ذلك الإذلال الذي لقيه (العم حسان) لات زيارته لبلدته التي نشأ في حضنها، وشمّ عبوق نسيمها، حيث يطالعنا قوله، متحدثا عن ذلك النفور الذي وجده من أهل قريته، إذ يقول عن ذلك الموقف المأساوي : « **بقيت في البلدة مدة طويلة ..أحاول أن أجد لنفسي مكانا في حضنها، فلم ألق من نظرات أهل القرية غير نظرات الإذلال والاحتقار..كنت بالنسبة إليهم حركيا خائنا**».[13]

إنّ هذا الكلام يبعث بنا إلى قراءة ذلك القلق الأليم الذي اخترق ذاته، فلم يجد ذلك التجاوب مع بني جلدته، ولا حتى النظرة الترحيبية منه، فقوبل بالاحتقار والإذلال، وما يزيد من حدة ذلك نعته بـــ (الحركي الخائن) الذي يطلق على أعوان الظلمة المعتدين، على حساب أبناء وطنهم المخلصين، وهذا ما يؤسس للتدافعية التي تقذفها (الأنا) مع (الآخر) الذي كان في وقت بعيد تابعا لها .

عليه، فإنّ أمل التلاقي والتضايفية مع (الآخر) تصبح وهما، أو شدّا لخيط واه رفيع، لأنّ مؤشرات العودة تجد لها مغاليق موصدة بإحكام، وهذا ما عبّرت عنه (أحلام) في سياق وصفها لهذه الشخصية الممزقة : « **كان يسند كفه على كتفي..يدندن بأغنية حزينة..وكانت زفرته طويلة ..بحجم السنين التي عايشته هنا..اشتاق كثيرا إلى العودة ولكن لمن يعود ؟ ومع من يعود؟ فالأبواب أصبحت صدئة لا تفتح ..لقد هجر وطنه وهو ضعيف والآن لا يستطيع أن يعود إليه لأنّه أضحى ضعيفا أكثر مما كان عليه** ».[14]

لكن هذا لا يمنع من أن نلمس ذلك التجاوب الحواري الذي ترسّخ عندها في مساءلتها للزوجة (ماري)، فرأت فيها المرأة الغربية المتسامحة المحاورة، التي تنبذ العصبية والحقد، لأنّها حاملة للواء الإنسانية السمحى؛ حيث نقلت لنا (أحلام) قولها المندرج تحت هذه المظلة

الإنسانية، إذ تقول : « **ولد الإنسان حرا..إنسانيتنا تدعونا لنبحث عن حرية الآخرين داخل أجسادنا ..داخل أحلامنا ..داخل أرواحنا هكذا علمتنا ديانتنا** ».[15]

إنّ الحرية التي تتشدق لها (ماري) – وإن كانت حاملة للمبدأ الإنساني– إلاّ أنّها تعدّ ناموسا تدميريا في معتقد (أحلام)، لأنّ العقيدة الإسلامية التي ترسخت في ذهنيتها واشرأبت لها ذاتها الأصيلة لا تؤمن بعبثية التحرر الذي سيصدح بتباشير الانحلال الأخلاقي، خاصة أن السلطة الذكورية تظلّ متحجّرة في ذاتها وفق شكل دائري لا عمودي، كحال (العم حسان) الذي فقد (الهيبة/المروءة/الشهامة)، وهذا ما جعله مشاهد منظر أسرته الذي يسمه (التفكك/ التشتت/ الانحلال/ التحرر الفاضح...)؛ ولعل الأمثلة التي استشهد بها في الفقرات السابقة لدليل بيّن على هذه المأساة التي تهاوت على فرد أراد أن يتنصل من (هويته/وطنه/لغته...).

<u>م2– تيه الآخر أم عبث بالهوية :</u>

إنّ الحديث عن الهوية هو حديث عن الثوابت والعقيدة والتقاليد والميراث الفكري لأي مجتمع من المجتمعات، فهي بذلك تؤسس لمعمارية التشييد الحضاري، وسلطة البقاء له، حيث إنّ الهوية تتشكل « في أدغال الذات، حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي، الذي يشكّل ركيزة أساسية فيها، مما يجعل الآخر المعتدي، يهتم بالقضاء عليها، أي على كل الثوابت التي تشكّل الروح والوعي».[16]

حرصت الروائية (**حسيبة موساوي**) على تقريب عدستها النقدية الرؤيوية من شخصية العم (حسان)، قصد إجلاء علائقيته مع (الهوية) التي رأتها (ممزقة/مضمحلة/ممحوقة) عنده في بلده الجديد (نورمندي)؛ فتشظّي الهوية في كينونة العم (حسان)، وتماهيها في عالم الآخر (الاستلابي) هو بمثابة « انحراف عن خصوصيات " الأنا" وعن مرجعياته الحضارية من طرف فئة انبهرت بالآخر، وخمود ظاهري في مكنونات الوعي بقضية " النحن"، مما يوحي بأنّ هناك تواطؤ ما يعقد أواصره مع عناصر الهوية الوطنية لصالح الآخر».[17]

تعقد الرواية في بنيتها التحية العميقة مقارنة بين (المنفى/نورمندي) بصفته مكانا جحيميا في استلاب الرجل الجزائري– العم حسان–، وبين الوطن الأصلي له (الجزائر) بصفته مكانا حميميا تلتقي فيه : الهوية، الأصالة، الإسلام...وغيرها؛ فالمنفى (باريس/نورمندي) قد أضحى الوطن الجديد للعم (حسان) ، الذي يكسوه الجمال العجائبي الفاضح الذي استرسلت (أحلام) في التفنن في وصفه، ومثال ذلك قولها : « **لم أحس كيف اغتلت تلك السويعات**

وأنا أتأمل تجاويف هذه المدينة العتيقة ..حلم الشعراء وأهل القلم وكل من يعشق الجمال الصامت ليجعله لوحة في كتابه أو ديوانه، مدينة الملابس الفاخرة والماركات العالمية (...) لم أشبع نهمي بعد من هذا الرونق والوقت قد داهمني بعد أن اقتربت أنفاسه الأخيرة [18]».

لكن السؤال (المركزي/الإشكالي) : **هل كان المنفى حيّزا فردوسيا للمغترب (العم حسان) خلافا لوطنه – الجزائر– الذي يؤسس للهوية (الأصلية/الأصيلة) ؟**

إنّ مكاشفة الأنا الساردة (أحلام) لماهية الوطن وحقيقة توطّنه عند العم (حسان) قد جعلها تقف أمام الصدمة أو الرجّة العنيفة غير المتوقّعة في ظلّ حداثة سنّها وبراءتها طفولتها، فبعدّ أن كانت في قرارات ذاتها أنّ مساحات الوطن في قلب قريبها المغترب يمثّل (النحن/الانتماء/الهوية) بالرغم من اغتراب الشخصية إلى الديار البعيدة (فرنسا)، إلا أنّ هذه الخواطر الوهمية – إن جاز توصيفها – سرعان ما يصيبها الخرق والتلاشي، لأنّ تيمة (الوطن) قد أضحى عندها فيما بعد حاملة لمفاهيم تناظر القوالب المفرغة من محتواها؛ حيث أبصرت (التمزّق/التلاشي/ التجافي/الخواء) على أصعدة عدة : الوطني/النضالي/الحلمي...وغيرها ؛ إذ أصبح الوطن الأصلي (الجزائر) بمختلف تعالقاته (الحضارية / الدينية/ الاجتماعية ...) عنده مشكّلا لـ : (الهناك/الآخر/المختلف/الغريب...)، وتمثيلا لذلك نورد هذا المقطع السردي الذي يجلّي هذه الحقيقة الأليمة التي اختمرت في ذهنية (أحلام)؛ حيث نلفيها قائلة : « **لم يبق له شيء يربطه بهذا البلد الذي استولى عليه ذلك الغاشم الهائم في أحضانها (...) كان ضعيفا في جسده.. في أمله وفي حلمه فاختزل هذا الضعف بالهروب إلى منطقة لا يشتم فيها رائحة الدم ولا يرى فيها ذلك المستبد القاتل فاختار أن يكون هروبه إلى نورموندي الحدود الفرنسية الانجليزية أين يجد خضرة بلاده التي افتقدها وراء البحر، وطقوس الصمت على حافتها لا يسمع الأنين** ».[19]

يبوح هذا المقطع النصّي بالجراحات المدمية عند (أحلام) وهي تصف حالة العم (حسان) بشكل ثاقب؛ إذ تحيلنا إلى ذلك الضياع (الجسدي/الحلمي/الاجتماعي/الفكري)، فقد ألمّ به الضعف فجعل جسده خاويا هزيلا، والأصعب من ذلك هو تنصله من قيود الهوية والانتماء لوطنه؛ خاصة في محنته التي تهاوت عليه جراء استدمار همجي استعلائي، فلم يك ذلك الوطني المستبسل الذي يجري ذاته على بساط الوغى والنضال، ولكن تخيّر القهقرى والملاذ،

« فأوقات الأزمة أو التحوّل في تاريخ أيّ أمة أو أيّ فرد هي في غالب الأحيان فترات البناء الكثيف للهوية أو إعادة صنعها ».[20]

تزيد النبرة العالية الساخرة للأنا حينما تجعل من (نورمندي) بلدا أصليا للعم (حسان)، وهذا ما يجليه قولها : **((فاختار أن يكون هروبه إلى نورموندي الحدود الفرنسية الانجليزية أين يجد خضرة بلاده التي افتقدها وراء البحر))**. ولعلّ ما يبيّن لنا الحسرة والغيظة عندها هو عبارة : **((وطقوس الصمت على حافتها لا يسمع الأنين))**؛ إذ إن بؤرة التوتر في الجملة السابقة يلخّصها دال (الأنين)؛ الذي يشي بحجم النكبة والويلات التي ألمت بشعب مسالم أعزل لم يغترف رجاله ولا نساؤه ولا صبيانه ذنبا فقوبلوا بآلة استدمارية مستقوية، ومع ذلك تجد في عمها متخيرا الهدوء في أرض غريبة أخرى تاركة وراءه الصيحات والزفرات التي تتعالى من أفواه أبناء وطنه.

أمّا عن الجفاء الثقافي الذي اعتراه فقد تمثّل في طمس معالم اللغة العربية التي هي عماد المجتمع العربي الاسلامي، والتي تؤسس لكينونته الوجودية داخل المجتمع العالمي الفسيح بمختلف أجناسه وتياراته المعرفية؛ إذ نجدها قائلة في معرض معاينتها لمكتبة عمّها (حسان) : «**كنت أنا في الصالون أمام المكتبة الفاخرة بالكتب التي تفتقر إلى الحرف العربي على خلاف مكتباتنا التي تحتضن على الأقل كتابين باللغة الفرنسية** ».[21]

يحيل هذا المقطع السردي إلى إشكالية معقدّة، حيث يشي بذلك الانفصام الكلي عن الثقافة العربية؛ إذ إن عبارة **(تفتقر إلى الحرف العربي)** لا تحمل مضمونا سطحيا يقوم على إزاحة اللسان العربي من رفوف المكتبة،أو تفضيل لغة عن أخرى، لأنّ القصد– وفق نظرنا– يتأتى في ذلك الاستلاب الفكري الذي ألمّ بشخص العم (حسان) فجعلت منه الآخر الذي يفتقد الرجولية المنافحة عن الأصول العربية التي كانت في أزمنتها المشرقة منبرا ثقافيا وحضاريا للأصقاع الأوروبية والأعجمية، فشيّدت ممالكها العتيقة في عقر ديار الآخر؛ فالهوية الحقّة هي تلك التي تجد من يعلي من شأنها ويدافع عن حماها؛ ويصون معالمها، ويتشبّث بمبادئها وقيمها، وهذا ما نوّه به الناقد (زكي نجيب محمود) بشكل واضح صريح؛ إذ الهوية – وفق متصوّره– لا تصان إلا بأن يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه.

لقد حرصت الفتاة (أحلام) على أن تضرب مثالا قاسيا موجعا، وفق شكل مقارناتي، تجلّي فيه قيم الانتماء عند شعب الشتات – المجتمع الصهيوني–، الذي أدرك منزلة الانتماء وحقيقتها التي وجب صيانتها، وتجعلها كصورة مقابلة لشخصية (العم حسان)، الذي اختار

(الغربة/الشتات) فتتمحي بذلك ذكريات الأمس، ويضحى بين لهيب الاحتراق في عالمه الجديد الموحش؛ حيث تقول في هذا الصدد : « **رغم ذلك التشتّت الرهيب الذي جعلهم يهيمون في جميع بقاع العالم، إلاّ أنّهم استطاعوا أن يحافظوا على ذلك الانتماء، لأنّهم يدركون جيّدا أنّ الانتماء هو الوطن الحقيقي على عكس عمّي حسان الذي هجر الوطن وما يحمله الوطن**».[22]

م3- الآخر : حتمية القطعية أم استلاب جبري :

شكّلت ثنائية (القطيعة/الاستلاب) بؤرة التوتر في معظم القراءات التي تكاشف فلسفة (الأنا/ الآخر) في النصوص السردية التي تجتهد في سبر هذه القضية الشائكة على مختلف المدارات والأصعدة، ولعل من بين تلك النصوص رواية (حلم على الضفاف) التي قدّمت وثيقة تفصيلية تستقرأ فيها شخصية مركزية ممثلة في العم (حسان)، الذي تجعل منه طرفا متابعا من طرف قريبته (أحلام)، التي شاهدت بقايا الهوية عنده، لأنّ خيار الرحيل عن الديار الجزائرية إلى أرض المنفى (نورمندي/فرنسا) قد يشي بأحد القرارين (حتمي قسري/استلاب جبري).

إنّ استنطاق جوهر (القطيعة/الاستلاب) لا يتأتى إلا بعرض لبعض المقاطع السردية التي تجلّيهما، حيث نقرأ قول الأنا الساردة (أحلام)، وهي تصف العم (حسان) في مرثية تراجيدية، حيث تقول : « **لحظات فقط ورائحة الغربة المعبأة داخل ذكريات الأمس تعود لتلاقي زمنا آخر وفردا آخر ... فرّ من بلده ليس هاربا؛ وإنّما رغبة وشوقا للاستمتاع ولو قليلا فوق هذه الضفاف التي اختارها عمّي هروبا من الأمس.. ينحت عليها وطنه**».[23]

نلمح بجلاء في هذا القول الذي تسرده (أحلام) ما يشبه حتمية القطيعة مع (الأنا)، وهو ما دلت عليه جملة ((**فرّ من بلده ليس هاربا؛ وإنّما رغبة وشوقا للاستمتاع**))، فدال (رغبة) يحمل البعد الاختياري لا الجبري، لأنّ ذكريات الأمس التي تجده في وعيه حيزا يلفها بعناية فتجد فيه الرجل الوطني الأمين، لكن المفاجأة ستظل صدمة في مفكرة الفتاة (أحلام)، التي دريت – رغم حداثة سنها – هذا التنصل القيمي، والجفاء الوطني عند العم (حسان)، الذي لا يناظر عندها الزوجة الشهيدة (أم السعد) التي ترك قبرها المضمّخ بـ : العز/الإباء/الشرف/النخوة...وغيرها من معالم الهوية الأصيلة المشرقة، تلك التي قالت عنها (أحلام) : ((**ولكن أم السعد بنت واد غير بنت تاكفريناس خلقت حرّة لتموت حرّة، وتدفن حرّة**)).

لقد دلّت لفظة (حرّة) التي أطلق العنان لها (العم حسان) على المعنى الذي أرادت أن تشرئب منه (أحلام) فتشرق شخصية (أم السعد) أمامها، تلك المرأة الأمازيغية الأصيلة، فالحرّة في القاموس الجزائري يعدل معناها عن (التحرر/ الحرية/الانسلاخ...)، لأنّها تعني (الفحلة/الشريفة/الطاهرة/الشجاعة...).

في مقابل ذلك فإنّه لا يجد حجّة لتفنيد حقيقة الجمال الذي لفّ زوجته الشهيدة (أم السعد)، الذي استرسل في وصفها بشكل غرائبي عجائبي، وفي ذلك ملمح – نراه مهما – يتأتى في أنّ قرار الرحيل إلى فضاءات الحلم الواهية لم يك القصد منه التعويض عن ذلك الجسد العربي بآخر غربي، فبهاء المحبوبة الأولى لا يضاهي نظيرتها في شتى الأصقاع، وهذا ما نفهمه بوضوح في حواره مع (أحلام) عنها؛ إذ يقول: « **أينعت هي الأخرى وتفجّرت أنوثتها..ازدادت جمالا ورونقا..كانت شمسا مورقة ..ربيعية ..خيزرانية الفتاة في تلك الناحية، وهي تنبعث منها الروح الأمازيغية (...) تمتد عروقها نحو الشمس لتصقل بشرتها البيضاء وتمدّها لمعانا ذهبيا..فتبرز خضرة عينيها..وتمتص منها وجنتيها حتى تتدفق حمرة ولمعانا**».[24]

إنّ نشدان المحبوبة (الوطنية/ المخلصة /الشريفة/ الجميلة) ما هو إلا استرجاع لذكرى (الوطن) الذي يمثّله في طيف (أم السعد)، فإن كان رحيله – بعد أن فرقت بينهم رصاصة المستدمر الفرنسي– إلى بلاد نورمندي الخضراء هروبا من (الجبن /الضعف) الذي جعله يستكين لات تهجم العساكر على أسرته، وفي المقابل دفاع المرأة عن شرفه وكرامته، إلا أنّ (أحلام) تتلمس ذلك الندم وتلك الرغبة إلى تكفير خطيئته، بعد أن تهاوت دموعه عند وداعه لها وهي تغادر أرض نورمندي الموحشة الخانقة له؛ إذ تصف هذا المشهد التراجيدي بقولها : ((**بقي يعرج بأنظاره لملاحقتي وهو يذرف دموعا كالأطفال، ولم يبرح مكانه إلى أن امتطيت الطائرة وانطلقت، ولم يعد يتراءى غير طيفها وهو يحلّق في الأجواء**)).[25]

إنّ دلالة (الدموع) التي نقلتها لنا الساردة (أحلام)، وهي تصف حال عمّها (حسان) لدليل صارخ على مرارة (الفقد/ العوز) عنده؛ لأنّ رؤيته لابنة أخيه (أحلام) هي بمثابة رؤية للوطن الذي تجلّى في شخصها، مما يجعلنا – وفق نظرنا – ننظر إليه على أنّه (الأنا) (الضائعة المضللة) بدلا من أن يصيّر إلى أخر مضاد لها، فحتمية (الفرار/ الرحيل) من ذلك الجبن والضعف، الذي جعله جاثما أمام قتلة زوجته دون حراك منه، قد يشفع له بشكل

جزئي لا كلّي؛ لأنّ للغربة ضريبتها – على حد تعبير حميدة نعنع– ، تلك التي وسّعت الهوة بينه وبين أهله في وطنه الذي تركه خلفه.

بناء على ما تقدّم نخلص إلى النتائج التي أبانت عنها قراءتنا النقدية لرواية (حلم على الضفاف) لـ(حبيبة موساوي)، والتي تتراوح بين (العامة/الخاصة)؛ حيث سعينا إلى كشف تضاريس الهوية في الميزان القيمي ، والنبش في تجاعيد الذاكرة الحلمية التي اتخذتها (أحلام) مطية للوصول إلى الحقيقة (الأليمة/المفجعة/المحمومة)؛ وبيان ذلك الآتي:

– حضور تيمة السفر والارتحال في رواية (حلم الضفاف)، مما يقرّب هذه الرواية النسائية من أدب الرحلة.

– اقتران البطل المحوري (أحلام) في الرواية بشخصية الكاتب تطابقا وسيرة وانعكاسا وتمثيلا وإحالة، مما يجعل من رواية (حلم على الضفاف) لونا من رواية السيرة الذاتية.

– هيمنة الخاصية السياحية المقرونة بالانبهار والاندهاش في الرواية، وذلك بسبب التفاوت الحضاري بين الشرق والغرب، فقد نقلت لنا (أحلام) تلك الصورة العجائبية لمدينة نورمندي فأبدعت في وصف معالمها بشكل جمالي انسيابي، في مقابل تعريتها لأزمة (**الهوية**) داخل الآخر المغترب والمستلبة مكانيا وقيميا.

– مكاشفة تيمة (**الهوية**) استدعى توظيفا لـ (المرأة) كرمز حضاري للتأشير على ثنائية الشرق والغرب، فقد مثّلت الأولى شخصية (أم السعد) التي عمدت إلى توظيفها الروائية (حسيبة موساوي) لتجعل منها رمزا مضمّنا لبلدها (الجزائر)، وعن الأخرى فقد تقمّصتها شخصية (ماري) التي كانت ترميزا للغرب.

مكتبة البحث :

(1) شيمة محمد الشمري، الآخر بوصفه أعمى : قراءة في أدوار الجماعة المهمّشة في رواية ((نزل الظلام))، ملتقى الباحة الأدبي الرابع(تمثيلات الآخر في الرواية العربية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2011. ص221

(*) حسيبة موساوي روائية وأديبة جزائرية، من مواليد 23 ماي 1973 بولاية سطيف، نشأت في جو أسري جدّ محافظ على تلك القيم و المبادئ التي يعتقد أنّها أصالة لا تستدعي أيّ فكر آخر، تخوض عالم الكتابة للصغار والكبار معا، نالت الجائزة الأولى بروايتها (حلم على الضفاف) سنة 2003، وبخصوص المناصب التي تقلّدتها فتتلخص كالآتي :

– عضو في اتحاد الكتاب الجزائريين

– رئيس تحرير جريدة غاردينيا

– مديرة مكتب دراسات حاليا

(2) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، (دط)، 2007. ص11

(3) ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (دط)، 2013. ص103–104

(4) ريم الفوّاز، انعكاسات الآخر في الرواية العربية، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية). ص212

(5) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية. ص27

(6) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف، دار الروائع، سطيف، الجزائر، ط2، (دت). ص21– 22

(7) المصدر نفسه. ص102–103

(8) المصدر نفسه. ص36

(9) المصدر نفسه. ص105–106

(10) نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية : في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1 ، 2008. ص115

(11) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص129

(12) المصدر نفسه. ص62

(13) المصدر نفسه. ص36

(14) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص75

(15) المصدر نفسه. ص36

(16) ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (دط)، 2013 . ص15

(17) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية. ص67

(18) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص9–10

(19) المصدر نفسه. ص12-13

(20) أبو المعاطي خيري الرمادي، مفهوم الآخر في الرواية المصرية المعاصرة. ص53

(21) المصدر نفسه. ص23-24

(22) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص105

(23)المصدر نفسه. ص24

(24) المصدر نفسه. ص43-44

(25) المصدر نفسه. ص117